

القرآن والمعجم الصوفي

بقلم : عبد العزيز بنعبد الله
أستاذ بجامعة محمد الخامس
ودار الحديث الحسنية

استلهم الكثير من الصوفية في الصدر الاول محكم القرآن وصريح الحديث فاصطبغت مراميم بطابع السنية بينما تفاعلت المؤثرات لدى آخرين باندرج عناصر دخيلة كالاسرائيليات والهلنستيات (كآراء مدرسة الاسكندرية) فبرزت معالم حدث البعض الى ارجاع التصوف الى أصل هندي أو قبالي يهودي فلهذا أكد ماسينيون فكرة الحاق التصوف بنسب اسلامي اقتبسوا من القرآن اضطروا هم انفسهم الى تاويل المتشابه بل وتوجيه الصريح طبقا اما لروح الآية أو للمأثور المشكوك في صحته .

وانصب هذا التأثير على المصطلح الصوفي فكان القرآن المصدر الاول وضع لمعجم الصوفية كلمات جوهرية تفرعت عن بعضها كثير من الاشتقاقات فقد أمدنا القرآن بالفاظ شتى لم يوفق ماسينيون في حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلى والاستماع والاستقامة والاستواء والاصطفاة والصدق والاخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللواة والامارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق وقد أغفل الكثير مما استعمله القرآن كالايمان وحق اليقين والامانة والروح والقدس والمقام والشاهد والجمع والمعرفة كما يظهر ذلك جليا من اللائحة الابجدية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرآن والتي عملنا على تجريدها وترتيبها للتدليل

ان استكناه واستقراء المصطلحات الصوفية يستلزم جرد كل الفاظ والتعابير المدرجة في مصنفات الصوفية منذ فجر الاسلام ولا يخفى أن هذه المصطلحات التي يركز الكثير منها على الوجدان والنوق تتسم غالبا بنوع من الغموض على غير ممارستها فلذلك اختلفت الآراء في تحديد فحوى ومدى كثير من المفردات تبعا للمصور والبيئات ولنوع الثقافة التي تطبع بميسمها الخاص هذا الصوفي أو ذاك فالصوفي الفقيه ينفعل للمؤثرات القانونية ويتسم أسلوبه وعقليته بمقتضياتها وكذلك المحدث والنحوي والفيلسوف كل ينساق مع لوازم البوتقة التي انصهرت فيها نفسه .

ولنضرب مثلا بلفظة التصوف نفسها التي تعددت تعاريفها فوصلت الالف (I) فاذا كان الفكر الصوفي واحدا في حقيقته متناسقا نوعا ما في مفازيه وأبعاده فان للشخصية أثرها القوي في تكييف هذه المقومات .

فمن الصوفية من غلبت عليه معطيات الاشراق كالسهروردي ومنهم من تجاذبته العوامل الفلسفية والدينية كالغزالي ومنهم من شطح كابى يزيد البسطامي والحلاج ومنهم من حاول تقييد التصوف على رسوم الاصلين (الكتاب والسنة) كالجنيد وابن طالب المكي ولكل مدرسته ولكل مدرسة اتجاهاتها في تقدير المفاهيم وتحديد المدرجات .

(1) طبقات ابن السبكي (ج 3 ص 239) التقط هذه التعاريف أبو منصور عبد القاهر البغدادي ورتبها تبعا لاصحابها حسب الحروف الهجائية .
وقد عرف الجرجاني التصوف بأنه الوقوف مع الآداب المرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال .

من عدم أهلية الساميين فى الفنون والعلوم عامة وردة الى أصل آرى كل الديانات السامية وانسحاق أمثال . فى أعقابه كل ذلك ناتج عن تعميم ما يجب أن يخص Renan, P. de Lagarde, Blochet et Browne

(كالهندسة والترقيم والفنون المعسدية والرسوم الزهرية والسلم الموسيقى والقصص) فالمذهب الشعبى الذى يؤهم بأنه فارسى النزعة لم ينشره فى فارس سوى عرب خلص تواردوا من الكوفة فى حين أن بعض الايرانيين كالأكراد والافغان ظلوا دائما خصوصاً للشيعا وقد أكد ماسينيون ان اللوائح التى جردت باسماء كبار مفكرى الاسلام ذوى الاعلى الفارسى نظرا لانتسابهم الى احدى مدن فارس ليست سوى صورة خادعة لان معظم هؤلاء لم يفكروا ولم يكتبوا الا بالعربية وما أكثر ما يردد «دعاة الايرانية» أسماء أمثال الفارابى وابن سينا والبخارى والزمخشري ضمن الامجاد الوطنية التترية ومن عاش مع مصنفات هؤلاء أدرك روحهم العربية كسيبويه فى النحو والاصفهانى فى الماثورات العربية Folklore والطبرى والفخر الرازى فى التفسير .

ومن عجز - كما يقول ماسينيون - عن تذوق قوة الابداز الفياض فى اللغات السامية ظن أنها غير صالحة للتعبير الصوفى مع انها لغات الوحي القدسى ولغات كثير من الانبياء ولغات الزبور الذى تعتبر مزاميره من أعظم ما انتشر من النصوص الصوفية على أن التبشير بالمسيحية وبالإسلام قد تحقق من خلال جميع اللغات حتى المجردة منها من العناصر النحوية كاللغة الصينية وجدين بالذكر أن التصوف يستغنى أكثر من التبشير عن العبارات الطنانة وعن حركة التريب والتدوير فى الاسلوب لان لغة القلوب تجد مسلكها المعبد السهل فى غير عنا . (4)

ونحن نقدم اليوم معجماً لمصطلحات القرآن الصوفية مرتبة حسب الحروف الهجائية وقد قمنا بجردها مباشرة من نص القرآن لنستخلص منها الدليل الحى - خلافاً لما زعمه كثير من المستشرقين - على أن القرآن هو المنبع الجوهرى للفكر الصوفى وان ما انتشر فى كتب الصوفية من مفاهيم ومذكرات ليس سوى انشاقة

على أن القرآن هو المصدر الجوهرى للمصطلح الصوفى وتضاف الى هذه المصطلحات ما تطورت معانيه عن طريق النحاة كالضمير والملاحق والاشارة والمجاز والاقتران او المتكلمين كالصقل والسعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة والقديم والثبوت والوجود او ما فى الاثر كسبحات الوجه والشرىة البيضاء والكبريت الاحمر والاسم الاعظم والديك الابيض وعنقاء مغرب ومقلب القنب وسبحات الجلال والقبطانية والغوثية والفردية والابدال والاولاد والنجباء والنقباء أو ما تسرب الى العربية من دخيل يونانى أو فارسى أو آرامى منذ العهد الجاهلى (كالانلاك والاكوار والازياج والمهرجان والدستور والكناش والتزيق والديوان فى نظر من يرجع هذه الكلمات أو الافكار الى أصول أجنبية .

ذلك ان للفكر حظاً مشاعاً بين انبشيرية يسودى الى وقوع الحافر على الحافر وقد أشار ماسينيون (2) الى صدف غريبة بين الهندوسية والقبالية والمائوية من جهة ونظريات الجيل والحلاج من جهة أخرى فالخاء فى السنسكرتية هى النقطة الاصلية عند الحلاج والانسان القديم عند المائوية هو آدم قدمون عند القبالية والانسان الكامل عند الجيل والاسم الاعظم عند الصوفية هو shem hamphorash عند العبرانيين وعمود الوسط فى التلمود هو عمود الصبح لدى المائوية وعمود النور عند التستري وفكرة «المريد الذى يكون مثل الميت بين يدي غسيله» هو ما عبر عنه بعد ذلك القديس فرانسوا داسيز وانيساس دولويولا St François d'Assise et St Ignace de Loyola وطريقة احتجاج الغزالى « Perinde ac cadaver » لفكرة البعث هى ما يسمى عند الغربيين Le pari de Pascal حيث عبر عنه الفيلسوف الفرنسى بنفس الاسلوب والتصوير .

وقد أكد ماسينيون (3) دحضا لنظرية التأثير الايرانى الى أنه ما دامت هنالك نفوس شاعرة مخلصه فان انبشاقاتها واشعاعاتها لا يمكن أن تنحصر فى جنس دون آخر وفى لغة غير أخرى فهى ظاهرة انسانية لاتحدها الحواجز العادية فما زعمه Friedrich Delitzsch

(2) فى كتابه «أصول المعجم الفنى فى التصوف الاسلامى» - طبعة جديدة 1954 باريس ص 57 .

(3) المصدر اعلاه ص 64 .

(4) لاحظ ماسينيون هنا أيضا ان كلا من النجوادب لهجات الاقاليم المحتلة لم يقاوم الفاتح العربى ولم يحتفظ العالم الاسلامى خلال جيل او جيلين باكثر من محروين باليونانية والفارسية لسجلات الخراج اى المدة التى تكونت فيها أفواج المحروين الجدد باللغة العربية .

- الشجرة الانسان الكامل (عج) .
- الواقعة ما يرد على القلب من ذلك العالم بأى طريق كان من خطاب او مثال (عج)
- قاب قوسين وهو أحدية عين الجمع الذاتية (ج)
- الغراب هو الجسم الكلى (ج)
- الضياء رؤية الاغيار بعين الحق (ج)
- الران الحجاب الحائل بين القلب وعالم القدس (ج)
- نون والقلم : نون العلم الاجمالى فى الحضرة الاحدية والقلم حضرة التفصيل (ج)
- الحجاب انطباع الصور الكونية فى القلب المانة لقبول تجلى الحق (ج)
- الصعق الفناء فى الحق عند التجلى الذاتى (ج) .
- مجمع البحرين هو النور المحمدى (هـ)
- البرزخ الروح الاعظم وعالم المثال (هـ)
- حق اليقين عبارة عن فناء العبد فى الحق (ج) .
- (راجع المعجم الصوفى فى القرآن فى قسم المعاجم)

- الفيض الروحى ينبعث من ثنايا التنزيل الذى تشعبت معطياته تبعاً لمقتضيات التاويلات الباطنية عند البعض او الوقوف عند ظاهر النص عند الآخرين .
- وقد تتجلى بعض المصطلحات نابية عن الاطار الصوفى ولكنك اذا طالعت كتب المصطلحات عند القوم ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى وتعريفات الجرجاني وكتاب الاملا فى اشكالات الاحياء لمست سعة هذا المجال الذى تنفسح جنباته لادق خلجات النفس وشتى تضاعيف الحياة وقد استعمل الصوفية المات من الكلمات القرآنية للتعبير عن مفاهيم رمزية وأشكال مبتدعة نضرب لذلك أمثلة حية من الالفاظ والتعابير الآتية : (5)
- البقرة كناية عن النفس اذا استعدت للرياضة (هـ)
- أم الكتاب بمعنى العقل الاول (ج)
- الافق الاعلى نهاية مقام الروح وهى الحضرة الالهية (ج)
- الخضن يعبر به عن البسط (عج)

(5) نرمز بالهاء الى التهانوى صاحب « كشاف اصطلاحات الفنون » وبالجم للجرجاني صاحب التعريفات و عى لابن عربى الحاتمي صاحب اصطلاحات الصوفية وبالفين للغزالي صاحب « الاملا فى اشكالات الاحياء »

المراجع

- Louis Massignon - Paris 1954.
- Vie des Saints musulmans.
- Emile Dermenghem - Alger.
- Parole donnée.
- Louis Massignon - Paris - Juliard 1962.
- La pensée religieuse d'Avicenne.
- Louis Gardet - Paris 1951.
- L'Imagination créatrice dans le Soufisme d'Ibn Arabi.
- Corbin - Paris 1958.
- Diwan d'El Hallaj.
- Louis Massignon. Journal Asiatique - Janvier-mars 1931.
- El Hallaj, martyr mystique de l'Islam.
- Louis Massignon - Paris 1922.
- تعريفات على بن محمد الجرجاني - المطبعة الخيرية بالقاهرة (عام 1306) وتليه رسالة اصطلاحات الصوفية، الواردة فى كتاب الفتوحات المكية لابن عربى الحاتمي .
- كتاب الاملا فى اشكالات الاحياء على هامش الاحياء للغزالي - الجزء الاول ص 49 .
- طبعة مصر (مكتبة عيسى الحلبي) .
- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى (طبعة القاهرة 1382-1963)
- Eloge du vin (Al Khamrya d'Omar Ibn Al Faridh).
- Emile Dermenghem - Paris 1931.
- Essai sur les origines du lexique technique de la Mystique musulmane.